لـــمـاذا نـــدرس
الـمـاضـي؟

لماذا ندرس الماضي؟

البحث عن الكنيسة التّاريخيّة

روان وليامس

نقلته إلى العربيّة

كلير بو ناصيف

دار المشرق - بيروت

لا مانع من طبعه

بولس دحدح
النائب الرسوليّ للاتين في لبنان
جعيتا، ٢٩/٨/٢٠١٢

جميع الحقوق محفوظة، طبعة أولى ٢٠١٣
دار المشرق ش.م.م.
ص.ب. ١٦٦٧٧٨
الأشرفية، بيروت ٢١٥٠ ١١٠٠ لبنان
www.darelmachreq.com

ISBN 2-7214-5410–2

التوزيع: **المكتبة الشرقيّة ش.م.ل.**
الجسر الواطي - سنّ الفيل
ص.ب: ٥٥٢٠٦ - بيروت، لبنان
تلفون: ٤٨٥٧٩٣ (٠١)
فاكس: ٤٨٥٧٩٦ - ٤٩٢١١٢ (٠١)
Website: www.librairieorientale.com.lb
E-mail: admin@librairieorientale.com.lb
E-mail: libor@cyberia.net.lb

صدر هذا الكتاب بالإنكليزيّة تحت عنوان:
Why Study the Past ?
The Quest for the Historical Church
ROWAN WILLIAMS
first published in 2005 by Darton, Longman and Todd Ltd
1 Spencer Court – 140-142 Wandsworth Hight Street
London SW 18 4JJ.

المقدّمة

أبصر هذا الكتاب النور بعد سلسلة المحاضرات التي أُعطِيَت في أيّار ٢٠٠٣ بكاتدرائيّة سالزبُري، تحت رعاية كلّيّة سَروم؛ وأريد أن أعرب عن امتناني الشديد للكلّيّة لأنّها منحتني هذه الفرصة، وكذلك لكلّ مَن حضر (لأنّهم واجهوا تحدّيات عديدة أهمّها التفاوت المتنوّع بدرجات الحرارة والضجيج الذي يملأ الأذن)، هؤلاء الذين طرحوا الأسئلة وتابعوا الحديث، وكلّ مَن شارك بكرم بالكاتدرائيّة في تنظيم مختلف النشاطات (والتعامل مع ما نجمَ عن الطقس والضجّة من تحدّيات). يشكّل هذا المؤلَّف عملًا جيّدًا أطول من المحاضرات الأصليّة، وبهذا سنحت لي الفرصة لكي أوضّح عددًا من الأفكار المتنوّعة ولكي أجيب بشكلٍ غير مباشر عن بعض النقاط التي أثيرت في حديثنا.

في الواقع، أنا أحاول أن أركّز على ثلاث نقاط أساسيّة: أوّلًا، يتألّف التاريخ من مجموعة قصص نخبرها من أجل أن نفهم هويّتنا والعالم الذي نعيش فيه حاليًّا بشكل أفضل؛ باعتباره قضيّة خطّيّة، ليس التاريخ أبدًا قائمةً من الأمور التي تحدث لمجرّد أن تحدث. ذلك أنّه من المحتّم علينا أن نصدر أحكامًا عن أهمّيّة ما يعالجه، وغالبًا - دائمًا؟ - ما كان يمثّل عنصرًا من عناصر الحكم الأخلاقيّ السطحيّ بعض الشيء. نبدأ بسرد القصّة لنحصل على تحديدٍ أفضل لما نحن عليه أو للموضوع الذي

نكون في صدده: يساعدنا التاريخ في وصف الأشياء. ويجعلنا التاريخ الجيّد نفكّر مجدّدًا في تحديد الأشياء التي نعتقد أنّنا نفهمها على أتمّ وجه، لأنّه لا يتعلّق بما هو مألوف وحسب، بل بما هو غريب. إنّه يعترف بأنّ «الماضي بلد غريب» تمامًا كما هو «ماضينا».

هذا كلّه ينطبق على تاريخ الكنيسة بقدر ما ينطبق على مؤسّسات أخرى. يصبح تاريخ الكنيسة شائعًا مثل الرياضة عندما يبدو أخفّ وضوحًا ممّا كان عليه أو عندما تدعو الحاجة إلى محاربة التحديدات التي نظنّها خاطئة. لذلك، عندما نتمعّن بطريقة كتابة تاريخ الكنيسة، سنرى أشخاصًا يحاولون أن يرسّخوا بكلّ وضوح ما تمثّله الكنيسة. وفي بعض الأحيان، يظنّون أنّه باستطاعتهم أن يقوموا بذلك فقط من خلال اللجوء إلى نوع من نظريّة المؤامرة: ذات مرّة، كان الأمر كلّه على ما يرام، قبل أن تضطلع به الفلسفة اليونانيّة، والقانون اللاتينيّ، والبابا، والمجتمع الأبويّ، ونظام الملكيّة، أو أيّ شيء آخر. إلّا أنّ التحدّي لا يزال قائمًا ولا سيّما في قصّة فيها نوع من الاستمراريّة. بالتالي، أستهلّ كتابي بنظرة إلى بعض الأمثال عن هذا كلّه، مرورًا بالعصور والحقبات الزمنيّة المختلفة.

ولكنّ هذا الأمر يقود إلى طرح سؤال آخر أعمق بعد. تزعم الكنيسة أنّها الجماعة البشريّة الأشدّ تفهّمًا في هذا العالم - العرق البشريّ الجديد الذي ما زال جنينًا. وهي تزعم ذلك لأنّها تؤمن بأنّها تأسّست بفضل عمل الله وليس بفضل أيّ عمليّة بشريّة تحدّها الأحداث. ولدى مؤمنٍ مسيحيّ يحاول أن يكتب عن تاريخ الكنيسة، يبرز التحدّي في تحديد الطرق التي بيّنت الكنيسة من خلالها أصلها الإلهيّ - أو التي حاولت على الأقلّ أن

تتجنّب من خلالها الصيغ والممارسات التي تُعتّمُ مطالبتها بالأصل الإلهيّ. وأعالج في الفصلين المتوسّطين من هذا الكتاب بعض الطرق التي، في عصور الكنيسة الأولى وأثناء نقاشات حقبة الإصلاح المزعجة، كان فيها تفهّم الناس الكنيسة مرسومًا بالمخاوف في موقفهم من الماضي والحاضر. لقد حاولتُ أن أبيّن كيف يمكننا، بالنظر إلى تلك الحقبة، أن نرى بصيص النور يدخل عبر النقاط الأساسيّة التي ينبغي أن نفكّر بها في أيّ نظريّة عن أنّ ماهيّة الكنيسة تنمو من الإيمان بأنّها مستمدّة من الله.

لذلك أنا أبحث عن طريقة لقراءة تاريخ الكنيسة، التاريخ الحسّاس لاهوتيًّا. وهذا لا يعني أبدًا أن نسمح للمصالح اللاهوتيّة بأن تطرح أسئلة تاريخيّة، أو أن نزعم أنّه لا يجدر بنا أن نهتمّ بالدوافع البشريّة والتكييف الاجتماعيّ أو السياسيّ عندما ننظرُ إلى الماضي المسيحيّ: اللاهوت الجيّد لا ينبع من التاريخ السيّئ. في الواقع، لا بدّ لنا من أن نقبل أن تشكّل بعض تواريخ الكنيسة عن الماضي تاريخًا سيّئًا لأنّها تتنقّل بسرعة فائقة من اللاهوت والروحانيّة إلى الشكل الذي تتّخذه أحداث الماضي. ولكنّ المسيحيّ - وهنا تكمن النقطة الثالثة - يؤمن بأنّ مسيحيّي الماضي والحاضر (والمستقبل أيضًا في هذا الموضوع تحديدًا) مجتمعون كلّهم في جسد المسيح، هذه الجماعة التي يضفي فيها كلّ فرد منّا لمسةً فريدةً على حياة الكلّ. وهذا يعني أنّ المسيحيّين سينظرون ويصغون إلى دراسة التاريخ المسيحيّ باحثين عمّا يغذّي إيمانهم حاليًّا؛ لن يلغوا الماضي بكلّ بساطة كونه سجلًّا حزينًا أو قاسيًا أو خطأً غبيًّا (مهما كَثُر ذلك). لتوقُّعنا عنصرٌ مهمّ: يجدر بنا أن ننطلق من دراسة الماضي متشبّعين فعلًا من النضوج المسيحيّ.

ما سبق أن قلناه يسبح عكس تيّار ممارساتنا الحاليّة، أتقليديّين كنّا ندعو أنفسنا أم متحرّرين. وكما سأقول غير مرّة، يضيع التقليديّون أحيانًا لأنّهم لا يتوقّعون أن يفاجأهم الماضي؛ في حين أنّ المتحرّرين يضيعون لأنّهم لا يتوقّعون أنّهم قد يهتّمون بالماضي أو يتساءلون عنه. وفي إطار ثقافيّ حيث لا يشجَّع فهم التاريخ بشكل معقول، ليس مستغربًا أن يكون الأشخاص الملتزمون دينيًّا مرتبكين بقدر أيّ شخص آخر يتوصّل إلى التعامل والماضي.

لقد كان الهدف من وضع هذا الكتاب تشجيع الناس على النظر إلى تاريخ الكنيسة، وأن يتوقّعوا أنّهم سيتفاجأون ويطرحون الأسئلة. فهو يحاول أن يدرس معظم أوجه الموضوع؛ وأنا أعتذر عن المرّات التي اعتبرت فيها بعض الأمور غير المألوفة بديهيّةً، أو التي عالجتُ فيها بعض العمليّات الشديدة التعقيد بتبسيط مضلّل. وفي كلّ صفحة كتبتها، أنا مدين لجميع مَن يدرسون التاريخ بشكل جدّيّ ولكلّ مَن يسعى إلى معالجته بطريقة تواجه المفاجأة والتحدّي. أمّا الأحاديث التالية فكانت لتبدو مختلفة فعلًا لولا الأمثال التي استوحيتها من لويس أيرس، وتيم بارنز، وكايت كوبر، وبراين غولدينغ، وجوديت هيرّين، وشون هيوز، وإليزابيث ماك هارلين، وجوديت مالتباي، وديرمايد ماك كولوك، وكارن طورجيزِن، ولولا صداقتهم والمساعدة التي قدّموها إليّ. لذلك أودّ أن أعرب عن شكري لهم ولعدد من زملائي ورفاقي الآخرين؛ وكالعادة، لجاين.

روان ولیامس

لامبيث، زمن المجيء، ٢٠٠٤

الفصل الأوّل

صناعة التاريخ: ما الذي ننتظره من الماضي؟

- ١ -

عندما يبدأ الناس رحلتهم كي يثبتوا أنّه لم يتغيّر شيء، يمكنك عادةً أن تتأكّد من أنّ أمرًا شديد الجدّيّة قد حصل. ذلك أنّك عندما تشعر بأنّك بحاجة إلى تبيان أنّه ثمّة تشويش على ما كان يُعتَبر بديهيًّا في السابق. عندما يغيب الوعي للأمور المتغيّرة، تبقى بعضُ الأسئلة غير مطروحة؛ إذ إنّ ما هو موجود يبدو واضحًا وطبيعيًّا. فإذا أردت أن تثبت أنّه طبيعيّ، قد تفلح في محاولاتك كما أنّك قد تفشل، ولكنّ الأكيد أنّ نوعًا من فقدان البراءة قد اتّخذ له مكانًا. وقد بات من الواضح أنّه لم يعد يمكنك أن تسلّم بأنّ الكلّ يعرف جيّدًا ما هو واضح وما هو طبيعيّ.

على العموم، لا يكتب الأولاد سيرة حياتهم. ويقال إنّ العالِم الكاثوليكيّ في الكتاب المقدّس رونالد نوكس، عندما كان صبيًّا في الرابعة من العمر، سُئِلَ عمّا كان يفعله في حال لم يكن يتمكّن من النوم، فأتت إجابته على الشكل التالي: «أتمدّد وأفكّر في الماضي»؛ ولكنّه من الآمن أن نفترض أنّه شخصٌ غير اعتياديّ. ونأخذ نفكّر في الطريقة التي سنخبر بها قصّة حياتنا عندما نصبح أشدّ وعيًا من السابق لما أصبحنا عليه، ولاختلافنا

عمّا نتذكّره عن أنفسنا. وبالطبع، يُطَبَّق الأمر نفسه على القصص التي نخبرها عن ماضينا المشترَك: عن التاريخ. كون التاريخ لا يزال حتّى الآن محاولةً بريئة لإدراج الأحداث في مساحة محايدة بعض الشيء، يحاول التاريخ أن يحدّد موضوعه بشكل أوضح. وفي هذا الصدد، ما من تاريخ عالميّ. «ما الذي حصل العام ١٠٦٦؟» يبدو هذا السؤال بسيطًا جدًّا، وتبدو الإجابة الصحيحة عنه بسيطة أيضًا - معركة هاستينغز. ولكن من البديهيّ أن نعرف كلّنا التاريخ الذي نخبره: قصّة مَن حكم ائتلاف الإمارات المحلّيّة الفضفاض الذي عُرِفَ في وقت لاحق باسم إنكلترا. أمور عديدة ومختلفة حصلت العام ١٠٦٦؛ وفي رأي مؤرّخين القرون الوسطى بإندونيسيا على سبيل المثال، قد يشكّلُ العام نفسُه ١٠٦٦ (أو بالأحرى ما يساويه في الروزنامات المحلّيّة) عامًا هادئًا بشكل خاصّ. فحتّى تاريخ «١٠٦٦» نفسه يخبرنا بأنّه قصّة حصلت في العالم المسيحيّ، قصّة صيغ إطارها نوعًا ما عبر الأحداث التي طرأت في فلسطين قبل ألف سنة. ليس لدينا حتّى «جدول» بسيط عن التاريخ؛ نحن نرسمه عندما نرغب في أن نحلّ بعض المشاكل المتأتّية عمّا نحن عليه الآن. إنّنا نستخدم القصص لنحدّد موضوعًا معيّنًا - شخصًا، بلدًا، عمليّة، أو ممارسة - كما لو كان أمرًا قائمًا ومستمرًّا عبر الزمن.

لذلك، يبدأ كتابٌ حديثُ العهد عن التاريخ الشائع مثل كتاب نورمَن ديفيس: **الجزُر** (*The Isles*) بتحدّي الافتراض القائل إنّنا نعرف ما نتحدّث عنه عندما نحاول أن نكتب تاريخ «بريطانيا». ما الذي نفعله تحديدًا عندما نجمع كتلة الجزر الخارجيّة هذه ونخبر قصّة تشدّد على أنّها جزر تنتمي بعضها إلى بعض «طبيعيًّا» وكأنّها وحدة واحدة؟ إنّنا نعزّز الإيمان بأنّ صورة

إنكلترا وجيرانها المستقلّين الذين أتوا إلى أجدادنا أو حتّى أجدادهم بشكل طبيعيّ إلى حدّ ما هي الطريقة «الطبيعيّة» للنظر إلى ماضي مجموعة الجزر هذه. وتبقى الوقائع المحرجة والمزعجة مذلّلة ومهملة، في حين أنّ بعض الوقائع الأخرى يتمّ وضعه في الصدارة وغالبًا بطرق قد تفاجئ فعلًا بعض الأشخاص المتورّطين فيها أصلًا.

كلّ ذلك لا تلتقطه الشكوك المألوفة في التاريخ «الموضوعيّ» أو أيّ نوع من أنواع الشكوك المتطرّفة في تحيّزات المؤرّخ التي تجعل الوثوق بأيّ قصّة شبه مستحيل. ليس مجرّد أن تكون القصص صحيحة أو غير صحيحة ما يساعد في معرفة بعض الأسئلة التي يعتقدون أنّهم يجيبون عنها (أو يجيبون عنها من دون أن يدركوا أنّهم يفعلون). وأعود هنا إلى النقطة الأساسيّة التي افتتحتُ بها هذا الفصل: عندما تشعر بأنّك غير قادر على التسليم بأنّ الأمور هي نفسها، تأخذ في التأريخ، وفي تنظيم الذاكرة الجماعيّة كي يتمّ تحسين الثغرات وعرض الهويّات. لقد اقترح فيلسوف فرنسيّ أنّ «التاريخ (بمعنى الكلمة الحديث) والثورة يولدان معًا»؛ بمعنى أنّه عندما تُقطَع العلاقات في تجربة الشركات، يعجز الناس عن تفادي العودة إلى ماضيهم والنظر إليه بطريقة غريبة نوعًا ما. يتماشى أخذ هذه الغرابة بعين الاعتبار من جهة، وتأييد المؤسّسات الجديدة التي زُرِعَت في التجربة الثوريّة أو رفضها من جهة أخرى على الخطّ نفسه، وعند هذا الكاتب كما عند غيره، يضع برنامج «العقليّة الحديثة» («المتحفّظة» بقدر ما هي «متحرّرة»).

هذه النقطة جيّدة جدًّا إذ إنّها تساعدنا في رؤية جزء معيّن من مشاكل العقليّة المعاصرة (ويجدر بنا أن ننظر مجدّدًا إلى بعض

تداعياتها). ولكن، في حين أنّ تطبيقها في عصرنا الحاليّ هو بغاية الوضوح، يؤكّد أنّ السؤال الضمنيّ يعود إلى أصول اللغة المسيحيّة القديمة، حتّى ولو لم تظهر التداعيات كلّها قبل القرن التاسع عشر. إقتباسًا عن كاتب فرنسيّ آخر هو لاهوتيّ هذه المرّة، أقولُ إنّ «الديانة المسيحيّة لسيت من أروع أمور التاريخ؛ بل إنّ التاريخ هو من أروع الأمور في الديانة المسيحيّة».

وقد يمكننا أن نقول بدقّة أشدّ إنّ العمل الذي يقوم به الإنجيل بحدّ ذاته يمهّد لبعض أساسات التاريخ الرئيسيّة. إنّ الشعب اليهوديّ يخبر قصّته في ضوء سلسلة كاملة من التخريبات - الخروج، والوصول إلى الملكيّة، وانقسامها، ونفيها. وقد ذهب بعض العلماء إلى أبعد من ذلك، بحيث قالوا إنّ الكتابات العبريّة تمثّل عمليًّا قصّةً تاريخيّةً مرسومة لتعطي نسبًا لمجموعةٍ من المستعمرين التي لا أصول لها أبدًا في ما أصبح يُعرَف لاحقًا باليهوديّة، الأشخاص الذين رحّلتهم الإدارة البابيلونيّة إلى هناك. وفي حين أنّها ليست فرضيّةً مرجّحةً كثيرًا أن تكون قصّة القواعد الأساسيّة في الذاكرة المشتركة الفعليّة لقصّة العهد القديم، إلّا أنّها تذكّرنا على الأقلّ بأنّ القصّة تحاول أن ترسم صورةً متناسقة من خلال تاريخ تخريباتٍ ضخمةٍ، وإخفاقاتٍ، وإقصاءات.

عند كتّاب العهد الجديد، الأمر سيّان وحقيقيّ بتعبير أشدّ دراماتيكيّةً. مع الوقت، في أثناء كتابة نصوص العهد الجديد الأولى، كان المسيحيّون واعين جدًّا للتوتّرات الناتجة من جهلهم ما إذا كانوا لا يزالون يشاركون اليهود الهويّة نفسها أم لا؛ فما من أجوبة قصيرة (بما أنّها لا تزال في بعض نواحيها غير مهمّة). وكانوا يعتقدون أنّ الأمور قد أُنجزَت؛ وقد أعيد تحديدها أيضًا. وفي أثناء كتابة تلك النصوص وتطويرها والإجابة عنها، أضافت

الأحداث الدراماتيكيّة التي ميّزت انتهاء الاستقلال السياسيّ اليهوديّ (دمار أورشليم العام ٧٠ للميلاد) عنصرًا آخر إلى التحليل المسيحيّ، مرفقًا ببعض النتائج الطويلة والحزينة.

لذلك، فإنّ ما نقرأه في العهد الجديد ليس مجرّد سجلّ لما حصل في الماضي، بل هو محاولة ملؤها التجديد والابتكار من أجل إخراج قصّة واحدة من مجموعة ذكريات تغطّي أحداث قوّة تخريبيّةٍ عظيمة. أوصل يسوع التاريخ القديم إلى أوجه، ولكنّه جعلنا ننظر إلى التاريخ بطريقة مختلفة تمامًا؛ إذ إنّ ما يهمّنا من التاريخ القديم سيكون مختلفًا، بحسب وجهة نظر الراوي، وتتّخذ المقاطع والأحداث التي لم تحتلّ الصدارة بالضرورة معنًى جديدًا. ولهذا السبب، بالمصادفة، قد يكون الحوار اليهوديّ-المسيحيّ في غاية التعقيد: سيقرأ المسيحيّ الكتابات العبريّة باحثًا عن إجابات الأسئلة التي لا يطرحها القارئ اليهوديّ. ولكنّ الموضوع هو أنّ كتّاب العهد الجديد يعلمون جيّدًا أنّه لا بدّ لهم من أن يقدّموا قصّةً متناسقةً بعناصرها الأساسيّة من جهة، وينقلوا بإنصاف حداثة ما حصل في حياة المسيح وموته من جهة أخرى. لا يمكنهم أن يجيبوا بوضوح سلبًا أو إيجابًا عن تاريخ شعب الله بما أنّ الكتابات العبريّة التي كانوا يقرأونها تبيّن ذلك.

بهذه الطريقة، هم لا يقومون بأيّ شيء لم يحصل في العهد القديم بالذات، والذي تعاد كتابة تاريخه. فلننظر على سبيل المثال إلى هوشع ١: ٤، حيث كانت مجزرة يزرعيل التي كان يُحتَفَل بها ضمنًا في أماكن أخرى وكأنّها انتصار الإيمان الصحيح على الوثنيّة، مدانة بشدّة. ولأنّ الله يعمل وفق إجراء تاريخيّ طويل ومتنوّع، لا بدّ من أنّ وجهة النظر الكامنة في الكتابات العبريّة متطوّرة ومؤثّرة على الدوام؛ وإذا كان يسوع ذروة هذه